ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ(١) ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم والَى إلينا بمواكب الرسالات التى تحمل إلى كل بيئة المنهج الذى يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه فى ( افعل ) و ( لا تفعل ) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربه ، وهو نبى والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

(١) كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه الإمام أحمد فى الزهد وابن أبى شيبة وغيرهما . وقال سعيد بن المسيب : إن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم . أورد السيوطى هذه الآثار فى الدر المنثور (٦/٥٠٩، ٥١٠) . وقال القرطبى : هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح . قال وهب ابن منبه : كان ابن أخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . انظر تفسير القرطبى (٧/٥٢١٦) .

إذن : جاء الاجتباء بعد المعصية ، فإنْ قلتَ : فما الداعى للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنبوة ؟ قالوا : لأنه أبو البشر ، والبشر قسمان : بشر معصومون ، وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غير الأنبياء ، ولا بُدَّ لآدم أنْ يمثل النوعين لأنه أبو الجميع ، فمثَّل البشر عامة حين وقع فى المعصية ، ومثَّل الأنبياء حين اجتباه ربه وتاب عليه ، فجمع بذلك بين الملحظين .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا.. (١٢) ﴾ [لقمان] والإيتاء يُطلَق على الوحى مع الفارق بينهما ، فإنْ أطلق الوحى فإنه ينصرف إلى الوحى للرسول بمنهج من الله ، ويُعرَف الوحى عامة بأنه إعلام بخفاء.

ومن ذلك قوله تعالى فى الوحى للملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

ويُوحى للبشر ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص]

ويوحى للحيوان ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. (٦٨) ﴾ [النحل]

ومن ذلك أيضاً يوحى الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

كذلك يوحى الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى .. (١١١) ﴾ [المائدة]

هذا فى المعنى اللغوى للوحى وهو : إعلام بخفاء ، فإنْ قصدت الوحى الشرعى الاصطلاحى : فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه .

وهذا التعريف يُخرج كل الأنواع السابقة .

والحق سبحانه عبَّر عن الإيتاء العام بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

والإيتاء يُقصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحق سبحانه وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال عن الله تعالى إلا إذا كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومبدعها ، كما يلتقط (الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن جهاز استقبالك به عطب ، أما الإرسال فموجود لا ينقطع ، ولله تعالى المثل الأعلى .

وله سبحانه إرسال دائم إلى عباده ، لا يلتقطه إلا مَنْ صفَتْ آلة استقباله ، وصلحت للتلقى عن الله ، وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت على المنهج فى افعل ولا تفعل ، لا تصلح إذا تكونت من الحرام وتغذَّتْ به ؛ لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التى خلقها الله فى عباده يوم أن أخذ عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فهذه الذرية لو ظلتْ على حالها من الصفاء يوم كانت فى ظهر آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمتْ منهج ربها فى ( افعل ) و ( لا تفعل ) لكانت أهلاً لإلهام الله ؛ لأن آلة استقبالها عن الله سليمة .

وتأمل فى وحى الله إلى أم موسى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني .. (٧)﴾ [القصص]

فأيُّ آلة استقبال هذه التي استقبلتْ هذا الأمر ونفذته دون أنْ تناقشه، واطمأنتْ إليه قبل أنْ تفكر فيه؟ وكيف تقتنع الأم أن الموت المحقق يُنجي وليدها من موت مظنون؟

لذلك نقول: إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنه لا يوجد في النفس ما يصادره، ولا ما يبحث عن دليل، فقامت أم موسى ونفذت الأمر كما أُلقي إليها، هذا هو الإيتاء.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (٦٥)﴾ [الكهف] والعبد الصالح[1] لم يكن نبياً، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة، فكان هو مُعلِّماً للنبي، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى، وأخلص لله تعالى فآتاه الله من عنده.

واقرأ قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] وقال سبحانه: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧)﴾ [محمد]

إذن: كلُّ ما علينا لنأخذ إلهامات الحق سبحانه أنْ نحتفظ بصفاء

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٩٢): «هذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ». وأخرج البخاري (٣٤٠٢) وأحمد والترمذي (٣١٥١) وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنما سُمِّي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٢٠) قال ابن حجر في فتح الباري (٦/٤٣٤): «قال الطبري في تاريخه: كان الخضر في أيام أفريدون في قول عامة علماء الكتاب الأول، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر». وأخرج النقاش أخباراً كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشيء منها حجة، قاله ابن عطية».

البنية التى خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى فى افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصافى الطاهر النقى ، الذى لم يخالط جسمه حرام ، والذى لا يغفل عن منهج ربه ؛ لذلك آتاه الله الحكمة ، وقال فيه : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ..** (١٢) ﴾ [لقمان]

وقد اختلف العلماء فيه : أهو نبى أم غير نبى ، والغالب أنه غير نبى[1] ؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح ، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك ، والحسّ كما قلنا هو الأصل الأول فى المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحسّ المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتتكون لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر فى نفسه ، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التى تسوس حركة حياته ، فيسعد بها فى نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن ، كذلك كان لقمان[2] .

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه قال : خيَّر الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم ، فذرّ عليه الحكمة ، فأصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة ، وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : لو أنه أرسل إلىّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيَّرنى ، فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلىّ . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) والقرطبى فى تفسيره (٧/٥٣١٧) .

(٢) عن أبى الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتى ما أوتى عن أهل ، ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة ( الشديد الصلب المجتمع الخَلْق ) سكّيتاً ، طويل التفكر عميق النظر ، لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، كان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها . [ عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٢) لابن أبى حاتم ] .

وللعلماء أبحاث حول شخصية لقمان وجنسيته ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك كان أبيض القلب نقى السريرة ، تخرج من بين شفتيه الغليظتين الحِكَم الرقيقة والمعانى الدقيقة(١) .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »(٢) .

لذلك حين ترى مَنْ هو أقل منك فى مال ، أو صحة ، أو جاه ، أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل ما تميّز به عليك ؛ لأن الخالق سبحانه - كما قلنا - وزَّع فضله بين عباده بالتساوى ، بحيث يكون مجموع كل إنسان يساوى مجموع الآخر ، ولا تفاضلَ بين المجموعات إلا بالتقوى : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح »(٣) .

فالذين يحلو لهم أنْ يقسموا المهن مثلاً إلى مهن شريفة وأخرى حقيرة نقول : ليست هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع فى حاجة إليها ولا تستقيم حركة الحياة إلا بها ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟

---

(١) مما يُروى من أخبار لقمان الحكيم أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت ترانى غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت ترانى أسود فقلبى أبيض . [ تفسير القرطبى ٥٣١٧/٧ ] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجة فى سننه (٤١٤٣) واللفظ لمسلم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٤١١) ، عن أبى نضرة عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ١٠٠) عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، فقال : « يأيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

والله لو قعد الوزراء فى بيوتهم أسبوعاً ما حدث شىء ، لكن لو تعطل عمال النظافة مثلاً أو الصرف الصحى ليوم واحد لحدثتْ مشكلة ، ولأصبحت الدنيا ( خرارة ) .

وكيف نحقر هذه المهن ونحقر أصحابها ، وهم يرضوْنَ باليسير ، ويتحملون ما لا يطيقه غيرهم ؟ كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإن قلت : ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول : بالمدد والإلهام الذى قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] فمَنْ يحافظ على مواصفات التكوين بمنطق الله يأخذ من الله مباشرة .

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتاجر به فى السوق ، فتعطيه مبلغاً يسيراً تُجرِّبه به ، فإنْ أفلح وربحت تجارته يطمئن قلبك فتزيده أضعاف ما أخذ فى المرة الأولى ، كذلك الإنسان إن أحسن صحبته لربه داوم الله عليه فضله ووالى إليه فيضه .

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز[(١)] : ما قصر بنا فى علم ما نجهل إلا عدم عملنا بما علمنا - يعنى : لو كنا أهلاً للزيادة لزادنا ، لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظَّفناه فى حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقية وعطاءات من ربنا ممتدة لا تنتهى ، أما إنْ أخذنا

---

(١) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموى ، أبو حفص ، ولد بالمدينة (٦١هـ) ونشأ بها ، وولى إمارتها للوليد ، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ ، فبويع فى مسجد دمشق ، ومنع سبَّ على بن أبى طالب وكان مَنْ سبقه من الأمويين يسبونه على المنابر ، توفى وهو فى الأربعين من عمره عام (١٠١هـ) ، مدة خلافته سنتان ونصف .

العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به ، فما الداعى للزيادة ، وأنت لم تستفدْ بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء فى شخصية لقمان وجنسيته تكلموا فى حكمته ، فسأله أحدهم وقد تبسَّط معه فى الحديث : ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً ؟ قال : بلى ، قال : فَبِمَ أوتيتَ الحكمة ؟ قال : باحترامى قدر ربى ، وأدائى الأمانة فيما وليت من عَمل ، وصدق الحديث ، وعدم تعرُّضى لما لا يعنينى[1] .

وهذه الصفات كافية لأنْ تكون منهجاً لكل مؤمن ، ولأنْ ينطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق فى الحديث لكانت كافية .

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو العبد الأسود ، فآتاه الله الحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدلك على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأخلص فى طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذِكْر فى مصافِّ الرسل والأنبياء .

ويُرْوَى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفى اليوم التالى قال له : اذبح لى شاة وأتنى بأخبث مُضْغتين فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله : ألم تَأْتِ بهما بالأمس على أنهما

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى « كتاب الصمت » ( حديث رقم ٦٧٥ ) ط . دار الاعتصام ١٩٨٦ م وابن جرير عن عمرو بن قيس قال : مرَّ رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده ، فقال : ألست عبد بنى فلان ؟ قال : بلى . قال : ألست الذى كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما الذى بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السكوت عما لا يعنينى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٦/٥١٢) .

أطيب مضغتين فى الشاة ؟ قال : بلى فليس شىء أطيب منهما إذا طابا ، ولا شىء أخبث منهما إذا خبثا[1] .

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « ... ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] .

ويقول ﷺ فى حديث آخر : « من حفظ ما بين لحييه[3] وما بين رجليه دخل الجنة »[4] .

ويُروى أن لقمان كان يفتى الناس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كفَّ لقمان عن الفُتْيا ، فلما سألوه : لماذا امتنعتَ عن الفُتْيا ؟ فقال - وهذه أيضاً من حكمته : ألاَ أكتفى إذا كُفيت ؟

يعنى : لماذا أتمسك بها وقد بعث الله لى مَنْ حملها عنى ، وهو يعلم تماماً أنه مجرد عبد صالح ( أى : أنه أخذ الحكمة من منازلهم

(١) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعى ، فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور ( ٦/٥١٦ ) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ، وتمام الحديث : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه ، الحديث .

(٣) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لَحْى [ لسان العرب - مادة لحا ] .

(٤) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/٢٥٢) من حديث سهل بن سعد بهذا اللفظ ، وأصله فى البخارى (٦٤٧٤) عن سهل بلفظ « من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » .

كما يقال ) ، أما داود فرسول من عند الله ، ومن الحكمة أنْ يُفسح له هذا المجال ، ويترك لـه ساحة الفُتْيا فى القوم لعله يـأتى بأفضل مما عند لقمان ؛ لذلك تركها له عن رضاً وطيب خاطر .

والبعض يقول : إن الله خيَّره بين أن يكون نبياً أو حكيماً ، فقال : أما وقد خيَّرتنى يا رب ، فأنـا أختار الراحة ، وأترك الابتلاء ، أما إنْ أردتها يا رب عـزمة فأنا سـأقبلها سـمعاً وطـاعة ؛ لأنى أعلم أنك لن تخذلنى [١] .

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمة يسبق بها النبوة ؛ ليـبـين لنا أن الإنســان من الممـكن أن يكون ربانيـاً ، كمـا جـاء فى الحـديث القـدسى : « عبـدى ، أطعنى تكُنْ ربانيـاً ، تقـول للشىء كُنْ فيكون » [٢] .

ذلك لأن فـضل الله ليس له حـدود ، ولـيس عليـه حـرج ، وبابه تعالى مـفتـوح ، المهم أن تكون أهلاً لأنْ تلِجَ هذا الـباب ، وأنْ تكون

(١) أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى مسلم الخولانى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لقمان كـان عبداً كثير التفكر ، حسن الظن ، كـثير الصمت ، أحب الله فأحبـه الله تعالى ، فمَنَّ عليه بالحكمة ، نـودى بالخلافة قبل داود ، فقـيل له : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرنى ربى قبلت ، فإنى أعلم أنه إن فعل ذلك أعـاننى وعلمنى وعصمنى ، وإن خيَّرنى ربى قبلت العافـية ولم أسـأل البلاء » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١١) .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) نحو هذا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنتـه بالحرب ، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصـر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجلُه التى يمشى بها » الحديث . قـال الطوفى ( سليمان عبـد القوى الصرصرى ت ٧١٦ هـ ) : اتفق العلمـاء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبـد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التى يستعين بها » .

في معية ربك دائماً .

ومما يُروَى من حكمة لقمان أنه غاب في سَفْرة ، ثم عاد فلقيه تابعه ، فقال له : مَا حال أبي ؟ فقال : مات ، فقال لقمان : الآن ملكْتُ أمري ، ثم سأل : فما حال زوجتي ؟ فقال : ماتت ، فقال : جدّدتُ فراشي ، ثم سأل عن أخته ، فقال : ماتت ، فقال : ستَر الله عِرْضي ، ثم سأل عن أخيه ، فقال : مات ، فقال : انقصم ظهري[1] .

وهذا الكلام لا يصدر إلا عن حكمة ، فكثيراً ما يفرح الابن - خاصة العاق - بموت أبيه ؛ لأنه سيترك له المال يتمتع به ، أما لقمان فيقول عندما علم بموت أبيه : الآن ملكْتُ أمري ؛ لأنه في حياة أبيه كان له أمر ، لكن أمره ليس في يده إنما في يد أبيه ، فلما مات أبوه صار أمره بيده .

وهذه الحكمة توضح لنا قول النبي ﷺ : « أنت وما ملكت يداك لأبيك »[2] كأنه من العيب أن تقول في حياة أبيك : أنا أملك كذا وكذا . أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القيم ، ونسمع الابن يقول لأبيه : اكتب لي كذا وكذا .

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام في الطريق فقال : ما فعل أبي ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمري . قال : ما فعلت أمي ؟ قال : ماتت . قال : ذهب همي . قال : ما فعلت امرأتي ؟ قال : ماتت قال : جُدِّدَ فراشي . قال : ما فعلت أختي ؟ قال : ماتت . قال : سترت عورتي . قال : ما فعل أخي ؟ قال : مات . قال : انقطع ظهري . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٥١٩) .

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أتى أعرابي رسول الله ﷺ فقال : إن أبي يريد أن يجتاح مالي . قال : « أنت ومالك لوالدك . إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً » أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٧٩، ٢١٤ ) ، وأبو داود في سننه (٣٥٣٠) .

أمـا قوله : « جـددت فـراشى » فهـى كلمة لهـا مـعنى كـبيـر : أنا لا أدخل الجديدة على فراش الـقديمة حتى لا أجرح مـشاعرها ، أو أننى لا أتزوج إلا بعد وفاة زوجتى الأولى ؛ ذلك لأن الغيرة طبع فى النساء .

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكـر السيدة خديجة ، فقد دخلت فاطمة بنت محمد ﷺ على أبيها مُـغْضبة فقال ﷺ : « ما أغضبك يا أم أبيها » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسول الله تزوج أمك ثيِّباً ، ولم يتـزوج بكْراً غيرى ، فقال لهـا رسول الله : « إذا أعادت عليك هذا القـول ـ وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الردِّ وفى سـرعة الخـاطر ـ فقـولى لهـا : ولكن أمى تزوجتْ رسول الله وهو بكر ، وتزوجـتيـه أنت وهو ثيِّب »[1] هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدْها عائشة مرة أخرى .

وقد يقـول قائل : وكيف تغـار عائشة ، وهـى أم المؤمنين وزوج رسول الله ؟ قالوا : هذه الغيرة لها معنى ، فـقد عقد رسول الله عليها وهى بنت السادسة ، ودخل بها وهى بنت التاسعة[2] ، وقد جاوز ﷺ الخمسين من عـمره ، ومع فارق السن بينهما رضيـتْ عائشة برسول الله ؛ لأنها رأتْ فيه من مزايا نوره ما جـعلها تَغَار عليه رغم كِبَر سنِّه وصغَر سنها . فلم تنظر إليـه على أنه رجل عجوز يكبرها ، بل رأتْ

---

(١) لقـد كانت عـائشة تغـار من خديجـة رضى الله عنهمـا ، رغم أن رسول الله ﷺ مـا تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ، ومن هذا ما أخرجـه مسلم فى صحيحه (٢٤٢٧) باب فضائل خديجة : أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : « ما تذكـر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدُهر ، أبدلك الله خيراً منها » فتغـير وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً : « والله ما أبدلنى الله خيـراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصـدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » .

(٢) عن عـائشة رضى الله عنهـا قـالت : تزوجنى رسـول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين ، ودخل علىّ وأنا بنت تـسع سنين ، ولقـد دخلت عليـه وإنى لألعـب بالبنات مع الجـوارى فـيدخل فينقمعن منه صواحبى فيخرجن فيخرج رسول الله ﷺ فيسربهن علىّ . أخرجه ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبير (٥٩/١٠) ـ ط مكتبة الخانجى ـ هيئة الكتاب .

فيه ما يفوق ويعلو على مجرد الشباب .

إذن : فمعنى : « جددت فراشى » أننى أراعى مشاعر الزوجة الجديدة ، فلا أُدخِلها على فراش القديمة فأصدمها به ، وأُلهب مشاعر الغيرة عندها ، حتى من التى ماتت ، وأنا أريد أن تكون صافية التكوين لذاتى ، راضية عن كل تصرفاتى ، أريد أن أمنع كل شبهة تقلق كونها سكناً لى ، وأنا سكَن لها .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] فالذى آتى هو الله عز وجل ، والحكمة : مادة حكَم تدل على وَضْع الشىء فى موضعه ، ومنها الحاكم ؛ لأنه يضع الحق فى نصابه ، حتى فى الدواب نسمى الحديدة التى توضع فى فم الفرس لأتحكم فى حركته ( حكَمه ) ؛ لأن الهدف من ركوب الخيل مختلف ، فمرة أركبه للنزهة ، ومرة أركبه لأدرك به صَيْداً ، ومرة للكرِّ وللفرِّ فى المعركة ، فكُلُّ هدف من هذه له حركة ، وينبغى أنْ أتحكم فى حصانى ليؤدى لى ما أريده منه .

إذن : فالحكمة تعنى فى معناها العام وَضْع الشىء فى موضعه ، وهى مجموعة من ملَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء التى تضع كل أمر فى محله لكن بيُسْر وبلا مشقة ولا تعب ، كالشيخ الذى ظل يدرس فى الأزهر مثلاً عشرين أو ثلاثين سنة تذهب إليه ، وتستفتيه فى أمر من الأمور ، فيجيبك بيُسْر وسهولة ، وبدون تفكير أو إعداد ، لماذا ؟ لأن الفُتْيا أصبحت ملَكة عنده لا تحتاج منه إلى مجهود ولا مشقة .

ومن الحكمة أنْ يخلق الله لك أشياءً ، ويهديك لأنْ تستنبط منها أشياءً أخرى .

وساعة تسمع من الله تعالى ﴿وَلَقَدْ .. ⟨١٢⟩﴾ [لقمان] فاعلم أن هنا قَسَماً فالواو واو القسم ، والمقسَم عليه مُؤكَّد باللام ومُؤكَّد بقد التى تفيد التحقيق .

قوله سبحانه : ﴿آتَيْنَا .. ⟨١٢⟩﴾ [لقمان] الحق - سبحانه وتعالى - فى إتيانه للأشياء يعنى تعدَّى مـا قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن خيـر مستـور . وقبل أنْ يخلق الله الإنسـان خلق له ، فجـاء الإنسان الأول ( آدم عليه السلام ) وطرأ على كون فيه كل مُقوِّمات حياته من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب .. الخ .

وكل ذلك مُسخَّـر له تسخيراً لا دَخْلَ للمنتـفع به فيه ، وهذا أول الإيتـاء ، بل قـبـل ذلك ، وفى الأزل قـبل أن يخلق الإنـسـان خلق له مُقوِّمات مادته ومُقوِّمات قيمه وروحه - أى : أوجدها .

لأننا نعلم أن كل صـانع قـبل أن يُقدم علـى صَنْعة لا بُدَّ أن يُحـدِّد الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أنْ يصنع الشىء ثم ينظر فيه : لأىِّ شىء يصلح هذا الشىء ، كذلك لا بُدَّ أنْ يسبق الصنعةَ منهجُ صيانتها .

فالحق سـبحانه قبل أنْ يخلـق الإنسان وضع له مُقوِّمـاته المادية والمـعنوية ، والمنهج الذى يُصلحـه وحـدَّد الهدف من وجـوده ؛ لذلك يُنبِّهنا الحـق سبحانه إلـى هذه المسألة فى قـوله تعالى : ﴿الرَّحْمَـٰنُ ⟨١⟩ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ⟨٢⟩ خَلَقَ الإِنسَـانَ ⟨٣⟩﴾ [الرحمن] فقـبل أنْ يخلق اللهُ الإنسانَ وضع المنهج الذى به صيانته ، وهو القرآن الكريم .

إذن : فمـعنى الإيتاء أنْ يعدى الله مـا قدره من خير ظاهر أو خـير مستور لمن قدره ، والخير يكون على نوعـين : خير يقيم المادة ، وخير يقيم القـيم الروحية ، المـادة تقوم بالهواء وبالطعـام وبالشراب .. الخ ، والقيم تقوم بالوحى وبالمنهج الذى حمله الرسل بافعل ولا تفعل.

والله تعالى آتى كثيراً من خلقه ، فلماذا خَصَّ لقمان بالذات ، فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] ؟ قالوا : لأن الله تعالى حين يأمر الرسل بأمر ليُبلِّغوه يُعِد الرسل لهذا الأمر ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا : إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الله ، وإلى المطلوب من الله بدون وحى ، وبدون إعداد .

ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - من أنه كان يُحدِّث سيدنا رسول الله بالأمر ، ويقترح عليه فيأتى الوحى موافقاً لرأيه ، فكيف يتسنى لعمر أن يقترح على رسول الله وفى وجوده ، وهو المشرع الثانى بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة إذا صفَتْ لله تستطيع أنْ تهتدى إلى الأشياء ، وتصل إلى الحق قبل أنْ ينزل الوحى به .

إذن : فالإيتاء من الله لا يأتى عبثاً ، فالإيتاء الأول كان لآدم عليه السلام ، وآدم شاء الله أنْ يجعله خليفة له فى الأرض ، ولا يعنى هذا أنه أول المخلوقات فى الأرض ، والحق سبحانه لم يَقُلْ إننى أول ما خلقتُ خلقتُ آدم ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر]

ومسألة الخلْق هذه هيِّنة على الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾ [إبراهيم] فالمسألة ليست نادرة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك .

وللعلماء كلام طويل فى عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الحن[1] ،

---

(١) قال ابن سيده : الحن نوع آخر غير الجن . ويقال : الحن خَلْق بين الجن والإنس . وقال الفراء : الحنّ كلاب الجن . [ لسان العرب - مادة : حنن ] .

وعالم البنِّ ، وعالم الجن وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، لكن إنْ حدَّثك المضللون الذين يريدون أنْ يستدركوا على الدين ويقولون : إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون : إن آدم أول مخلوق ؟

ونقول لهؤلاء : لم يقُلْ أحد : إن آدم أول مخلوق على الأرض ، إنما هو أول هذا الجنس البشرى الذى نسميه « إنسان » لكن سبقته أجناس أخرى ، وشاء الله أنْ يجعل آدم خليفة فى الأرض ، ثم أخبر الملائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة]

والله حين يخبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين لهم أمراً واقعاً ، وخصَّ الملائكة بهذا الإخبار ؛ لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد . إذن : فالذين قال الله لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] ليسوا كل الملائكة ، إنما الذين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق ، أما باقى الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، وليس فى بالهم إلا الله .

والقرآن الكريم يشير لنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة فى قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص] والعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود .

وقلنا : إن الله تعالى كرَّم آدم حين خلقه تعالى ، وباشر خَلْقه بيده سبحانه ، ولم يخلقه كباقى المخلوقات ( بكُنْ ) ؛ لذلك جاء فى حيثية النقد على إبليس : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥) ﴾ [ص]

إذن : مباشرة الخَلْق باليد دليل على العناية بالمخلوق ؛ لأن اليد هى الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعمل اليد فنقول ( هذا الشيء يدويّ ) يعنى : لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد مفكر يتقن الصنعة .

وفى مسألة خَلْق آدم - عليه السلام - يحلو للبعض أن يقول : هو الذى أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أننى خلقتُه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب فى أنْ نخرج منها ؟

لم يقُلْ ذلك ، إنما قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] فهو - إذن - مخلوق للأرض ، وما الجنة التى دخلها إلا جنة التجربة لا جنة الخلد ، والبعض يظن أن كلمة الجنة إذا أُطلقَتْ تعنى جنة الآخرة ، وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فالجنة فى اللغة هى المكان المليء بالأشجار الكثيفة التى تستر مَنْ يسير فيها ، كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية ؛ لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها ، فبها كل مُقوِّمات الحياة ، ومن ذلك الجنة التى دخلها آدم ؛ لأن الله تعالى أراد أنْ يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن نُدرِّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أنْ يقوم بها ، حتى لاعب الكرة .

وحين نأخذ المتدرب لندربه على أداء مهمته لا بُدَّ أن نوفر له كل مُقوِّمات حياته ، ونتكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له

إقامـة كاملة من طعام وشـراب ومسكن .. إلخ وكذلك فـعل الله تعالى لآدم فقال له ﴿ يَـٰآدم اسْكُنْ أَنت وزوجُك الْجنَّة وكُلا منْها رغدًا حيْثُ شئْتُما ولا تقْربا هـٰـذه الشَّجرة فتكُونا من الظَّالمين (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحين نقارن بين ما أباحه الله لآدم وما حظره عليه نجد أنه تعالى أباح له كُلَّ مـا فى الجنة ولم يحـرم عليـه إلا هذه الشـجـرة التى أوضـحهـا وبيَّنها له . كـمـا نلحظ قوله تعـالى : ﴿ لا تقْربا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : لا تأكلا ؛ لأن القرب من الشىء قد يُغرى بمزاولته ، فاحتطْ أنت لنفسك بعدم القرب منه .

وهذا التدريب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لخلْقه فى ( افعل ) و ( لا تفعل ) .

ثم يذكّـر الحق سبحـانه آدم بالمقـدمة العـدائية التى حـدثتْ بينه وبين إبليس ، وينصحـه بأنْ يحذر هذا العدو ؛ لأنه أبى أنْ يسـجد له لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتواً .

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع له ، لا السجود لآدم فى ذاته ؛ لذلك نجـد الأمر من الله تعالى يختلف باختـلاف المأمورين ، فمـرة ينهى عن شىء ويأمر بمثله ليـرى مدى انضباطك للأمر وللنهى .

ففى الحج مـثلاً ، يأمرك أنْ تُقـبِّل حجراً ، وأنْ ترمى حجـراً آخر وترجمـه ، وهذا حجر وذاك حـجر ، إذن : فالحـجرية غـير منظورة ، لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهى .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهى ، فمثلاً حينما يتعذر الماء يشرع التـيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتى مَنْ يقول :

الوضوء للنظافة ، فما النظافة فى التيمم ، وهو يُلوِّث الجسم ؟

ونقول : فَرْق بين النظافة والتطهير ، والمراد من التيمم التطهير بشىء هو أصل فى مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط فى طاعة الأمر بأن تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تُقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قوَام روحك وحياتك ، وحياتك فى الأصل ومادتك من الماء الذى تستخدمه فى الوضوء والتراب الذى تستخدمه فى التيمم .

إذن : لهاتين المادتين رمزية يجب أنْ تُلحظ فى الدخول على الله فى الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أنْ يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن علّتها والحكمة أو المصلحة من أدائها ، إنما يكفى أن يقول : علَّة هذا الأمر أن الله أمر به أنْ يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمر به ألاّ يُفعل .

لذلك ورد عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : لو كانت المسألة بالعقل لكان أسفل الخُفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه[1] ، إذن : المسألة طاعة والتزام للأمر وللنهى ؛ لذلك من غير المناسب أن نقول : إن من حكمة الصوم : أنْ يَشعر الغنى بألم الجوع ، فيعطف على الفقير ؛ لأننى سأقول لك إذن : لماذا يصوم الفقير ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً وما زِلْنا نكرره . قلنا : إن أعز شىء على المرء صحته ، فإنْ أصابته علة ، فأول ما يُعمل عقله

---

(١) عن على رضى الله عنه قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه ، أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٢) .

يبحث عن الطبيب المتخصص فى مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دون أنْ يسأل عن علَّته ، أو لماذا وصفه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أنْ تعلَّم ودرس وتخصَّص ، فأنت لا تسأله ولا تناقشه : لماذا كتب لك هذا الدواء ، وهو مع ذلك إنسان وعُرْضة للخطأ وللسهو وللنسيان ، ومع ذلك لا يناقش . إذن : علة تناول الدواء أن الطبيب وصفه لى ، وعلة كل أمر عند الآمر به .

والآمر فى العبادات هو الحق - سبحانه وتعالى - فلا يليق بالمؤمن بعد أنْ آمن بالله وبحكمته وقدرته أنْ يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل .

نعود إلى آدم - عليه السلام - وأن الجنة التى دخلها كانت للتدريب والتجربة ولم تكُنْ جنة الخلد ، تدرَّب فيها آدم على : كل ( افعل ) وعلى : لا تقرب ( لا تفعل ) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس لك ، ويغويك ؛ لأنه لا يريد أنْ يكونَ عاصياً وحده ، يريد أنْ يجرَّك معه إلى حمأة المعصية .

وظل آدم وزوجته يأكلان كما قال تعالى من الجنة رغداً حيث شاءا ، دون أنْ يقربا هذه الشجرة التى بيَّنها الله لهما إلى أنْ وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذَّرهما ، وأعطاهما حقنة مناعة ضد الشيطان ووسوسته ، ومع ذلك حدثتْ من آدم الغفلة .

وهذه الغفلة الله يُنبِّه بها ذرية آدم من بعده : أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بألاعيبه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكونوا منه على حذر ، وابحثوا بعقولكم ما يلقيه إليكم من وساوس .

بالله ، ماذا قال إبليس لآدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف]

أليس من المنطق أن نقول : ولماذا لم تأكل أنت منها يا إبليس فتصير ملَكاً ، وتصير من الخالدين ، ولا تتمحك فتقول : ﴿ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ﴾ [الحجر] إذن : كان على آدم أنْ يتنبه إلى مكايد الشيطان وألاعيبه .

ثم يُنبِّهنا الحق - سبحانه وتعالى - من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتينا فى مقام الطاعة ، فلو أن آدم وزوجه ذهبا إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما ، فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر ، فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ؛ لذلك تدخَّل الشيطان .

إذن : نقول إن الشيطان لا يتدخل إلاَّ فى مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كفاه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى الخمارة ؛ لأن الذى يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً فى ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] أى : فى مواضع الخير وطرق الصلاح والهداية لأبطل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلحظ ذلك فى صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ، وتحاول أن تتذكره فلا تستطيع ، وفجأة وأنت تصلى تتذكره .

فلو أننا أخذنا ( الروشتة ) من خالقنا عز وجل وبمجرد أنْ ينزغنا الشيطان نقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتنبّه الشيطان ،

وعلم أننا لسنا فى غفلة ، وأننا نكشف ألاعيبه ، ونعرف حيله ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وقد وصف الله الشيطان بأنه خنَّاس ، يعنى : إذا ذُكِر الله خنس وتضاءل ، فإنْ جاءك هذا الخاطر الشيطانى - حتى وإنْ كنتَ تقرأ القرآن - قُلْ بجرأة وقوة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ليعلم أن ألاعيبه لا تخفى عليك فينصرف عنك ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك فقط طرف الخيط ، ويفتح لك باباً يشغلك به ، ثم يتركك أنت ( تكُرُّ ) هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو ( يستغفل ) واحداً غيرك .

والشيطان رغم علْمه ، إلا أن فيه تغفيلاً بدليل أنه أعلن عن خطته ، وأظهر لنا مكايده قبل أنْ يكيدنا بها ، فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] ، فالذى يدبر المكايد ويتآمر على غيره لا يعلن عن مكايده مُقدماً ، ونحن أيضاً كان علينا أنْ نحذر هذه المكايد خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها .

ولك أنْ تلحظ فى خطة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الأربع ، ومعلوم أن الجهات ست ، فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قالوا : لأن هاتين الجهتين محلٌّ نظر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عزِّ الربوبية فى عليائه وذُلِّ العبودية إذا اتجه فى سجوده إلى أسفل .

إذن : فأنت فى معية ربك فى هاتين الجهتين ، والشيطان لا ينال منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك . ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ؛ قلنا : إن الغلام إذا كان يسير فى يد أبيه وفى صحبته ، لا يجرؤ أحد من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إنْ سار وحده فهو عُرْضة للإيذاء .

وهذا دليل على علم إبليس وعلى ذكائه ، ونلحظ هذا أيضاً فى قوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] كأنه يقول لربه : أنا لا أقترب من عبادك الذين هم فى حضانتك ، وفى معيتك .

والتغفيل الأكبر فى إبليس أنه مع علمه بمقام ربه يتمرد على أمره ، حين يأمره بالسجود فلا يسجد .

إذن : نبَّه الله تعالى آدم وحذره من كَيْد إبليس ، وكان عليه أنْ يحذر وألاَّ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه فى غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما خالف الأمر اختلفتْ طبيعته ، وبدَتْ له ولزوجه السَّوْءة ، وكانت المرة الأولى التى يشعر فيها آدم بعورته عند خروج الغائط .

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام ( الفم ) وفتحة خروجه ؟ ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قالوا : لأن آدم حال طاعته لأمر ربه فى الأكل من ثمار الجنة كان يأكل بطهى ربه ، وهو طهى بحكمة وبقدر معلوم ، يكفى مقومات الحياة ولا يزيد عنها ، لذلك لم يَبْق فى بطن آدم فضلات ، ولم توجد عنده غازات أو أرياح ، فلم يشعر فى هذه الحالة بحاجة إلى التغوط ، فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة .

فلما خالف آدم أمر ربه وذاق الشجرة اختلفتْ الأغذية فى بطنه ، وحدث لها تفاعلات ، ونتج عنها فضلات وأرياح ، ولما أحسَّ بها آدم نفر منها وأصابه الخجل ، وشعر أنها عورة ينبغى أنْ تُستر ، فالطبع السليم لا بُدَّ أنْ ينفر منها ؛ لذلك أخذ يزيل هذا الأذى عن نفسه .

ويستره بأوراق الشجر ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع آدم أن يسدَّ هذه الفتحة ، ولن تُسَدَّ .

إذن : الحق سبحانه جعل الدُّرْبة لآدم فى الجنة هذه ، وهيَّأ له فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعينه[1] ، فأمره ونهاه وعلَّمه وحذَّره ، فلما وقع فى المخالفة وأغواه الشيطان ، ولم يعمل بنصيحة ربه أخرجه إلى الأرض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده : إنْ سِرْتَ على منهجى ووفْق أوامرى فى ( افعل ) و ( لا تفعل ) فلن تجد عورة فى الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً فى حركة حياتنا فى الكون ، فلا نرى عورة فى المجتمع ولا خللاً إلا إذا خُولِفَتْ أوامر الله .

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدَّر الله غفلة البشر ، فأرسل إليهم الرسل بالمنهج ، فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء] وقال فى عيسى عليه السلام : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ (٢٧) ﴾ [الحديد]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٩) : « اختلف فى هذه الشجرة ما هى ؟

- الكرم ( العنب ) . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما .
- الحنطة . زعمته اليهود .
- التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .
- السنبلة . قاله ابن عباس .
- النخلة . قاله أبو مالك .
- البر . قاله وهب بن منبه .

قال ابن كثير : فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة . قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

وهذا الإيتاء من الله يتم فى خفاء ؛ لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات ، فالله تعالى لا يمدُّ يده فيعطى النبى أو الرسول شيئاً حسيّاً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالغيبيات دون المحسَّات ، فأنا لا أقول مثلاً : آمنتُ بأننى قاعد فى مسجد الشيخ سليمان وأمامى جَمْع من الإخوة .. الخ . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الإيمان بأمر غيبى .

الحق - سبحانه وتعالى - يُؤتى على توالى العصور أنبياءه معجزات ، ويؤتيهم منهجاً يسوس حركة الحياة ، ولا يقتصر إيتاء الله على الرسل ، إنما يؤتى غير الرسل ، ويؤتى الحيوان .. الخ .

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة التى آتاها لقمان : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢) ﴾ [لقمان] هذه هى الحكمة الأولى فى الوجود ؛ لأنك إنْ شكرتَ الله على ما قدَّم لك قبل أنْ توجد ، وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدى مهمتها حتى وأنت نائم ، كأنه تعالى يقول لعباده : ناموا أنتم فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

فإن شكرك لله يهدم أول لبنة من لبنات الاغترار ، فالذى يفسد خلافة الإنسان فى الأرض أنْ يغترَّ بما أعطاه الله وبما وهبه ، وينسى أنه خليفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً فى الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل] أى : تشكر الله على ما سبق ، فقد وُلدتَ لا تعلم شيئاً ، ثم تكونت عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمتَ وملأت قلبك بالمعانى الجميلة ؛ لذلك تشكر الله عليها ، فجَعْل هذه الآلات لك ، علّته أنْ تشكر أى : على ما مضى .

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو فى ذاته نعمة جديدة ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٤٦)﴾ [الروم] هذه كلها نعم يعطف عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

فعطف الشكر على النعم السابقة يعنى أنه فى ذاته نعمة ، وإلا لقال كما فى الآية السابقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

والشكر بهذا المعنى هو المراد فى قوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو آت .

والشكر فى قوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] مُوجه إلى الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر فى أسباب تناوله إلى غير الله ، كأنْ تشكر صاحبك الذى قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته يؤول إلى شكر الله فى النهاية .

لذلك قالوا : لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه ، يعنى : جعله سبباً فى قضاء حاجتك ، ثم إن الذى قدَّم لك جميلاً ، ما قدَّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك ، ودعاه إليه ، وأثابه على فعله ، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟

لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره .

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره ، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد وسع سبحانه الكافر الذي كفر به ، ولم يقطع عنه نعمه ؛ ذلك لأنه سبحانه غنى عن خَلْقه ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر الجاحد .

ونلحظ في الأسلوب هنا عظمة وروعة ، ففي الشكر قال سبحانه ﴿ وَمَن يَشْكُرْ .. (١٢) ﴾ [لقمان] أما في الكفر فقال ﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] ولم يقل : ومَنْ يكفر ، وفَرْق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام ربٍّ ، ففي الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿ يَشْكُرُ .. (١٢) ﴾ [لقمان] الدال على الحال والاستقبال ، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر.

وكأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ، فجاء بالفعل الماضي ﴿ كَفَرَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] أي : في الماضي فحسب ، وقد لا يعود في المستقبل ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

ومعنى ﴿ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان] من صيغ المبالغة على وزن « فعيل » وتأتي مرة بمعنى « فاعل » مثل رحيم ، ومرة بمعنى « مفعول » مثل قتيل أي : مقتول ، والمعنى هنا ﴿ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان] أي : محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿ غَنِيٌّ .. (١٢) ﴾ [لقمان] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذي حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكَم لقمان التى رواها القرآن الكريم : ﴿ وإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وهُو يعظُه .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] قوله : ﴿ وإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلُّنا على صدق ما رُوى عنه أنه كان يفتى الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام ، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال : ألا أكتفى وقد كُفيت ، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده .

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة - رضوان الله عليه - عندما شكاه القاضى ابن أبى ليلى[1] إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأنْ يترك الفتوى ، وبينما هو فى بيته إذ جاءته ابنته وقالت له : يا أبى حدث لى كذا وكذا - تريد أن تستفتيه - فماذا قال لها وهى ابنته ؟ قال : سَلِى أخاك حماداً ، فإن أمير المؤمنين نهانى عن الفُتْيا .

وفَرْق بين أنْ يتكلم الإنسان مع عامة الخَلْق ، وبين أنْ يتكلم مع

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، الأنصارى الكوفى : قاضٍ ، فقيه ، من أصحاب الرأى . ولد ٧٤ هـ . ولى القضاء والحكم بالكوفة لبنى أمية ، ثم لبنى العباس ، واستمر ٣٣ سنة ، له أخبار مع الإمام أبى حنيفة وغيره ، مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ عن ٧٥ عاماً . ( الأعلام للزركلى ٦/١٨٩ ) ، ( تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٧١ ) .